دبيب الفراق

اليوم سألت أمجد:

– ما تفسيرك لحالة خالد؟

– ليس عندي إلا تفسير واحد إنَّه الفراغ النفسي الذي يعيش فيه فيملأ عليه حياته، ولا يستطيع أنْ يدخل عليه مشارك.

حقيقة لم أفهم تمامًا ما عناه بالفراغ النفسي، ظننت أنَّه يريد انعدام المشاغل فقلت له:

– ولكنه في الثانوية العامة وكفى بها مشغلة.

فما كان منه إلا أنْ رفع كتفيه لاويًا شفته السفلى فعلَ المتبرئ من المعرفة، ثم قبَّل يدي ومضى إلى غرفته كعادته.

بعدها سألت سالمًا السؤال نفسَه، فقال دون تردد:

– إنه ضعف الإيمان يا أبي!

– ولكنَّه يصلي ويصوم معنا؟!

– أنا أقصد أنَّه لا يعرف حقيقة الحياة .. لا يستحضر السبب من وجوده في هذه الدنيا ..

– وهل يعرف هذا السبب كلُّ الناس الذين يعيشون حياة طبعية ويتحملون المسئولية، ويجتهدون في أعمالهم؟!

– لا بدَّ أنَّ كلًّا منهم يستحضر غايةً ما يسعى إليها.

– ولماذا . تُرى . لا يستحضر أخوك أيَّ غاية؟

– يا أبتِ أنتَ تعلمُ أنَّ خالدًا ولدٌ مدلل، كلُّ ما يطلبه يجده، دون أدنى عناء منه، وهذا في رأيي مبرر كاف لأنْ يعتاد الكسل والقعود عن العمل.

– وما الحل من وجهة نظرك؟

– الحل هو أنْ يرسُبَ في الثانوية العامة!

– يا سالم، لا تكن قاسيًا على أخيك الأصغر.

– لا يا أبي، صدقني، أنا لستُ قاسيًا، ولكنَّ مَنْ ثَقُلَ نومُه فلابدَّ له من يدٍ تهُزُّه حتى يستيقظ، ولابدَّ أن تكون قوة الهزة بحسب عمق النوم.

بعد هذا الحوار شعرتُ بضيق في صدري، فتركت سالمًا يكمل قراءة الكتاب الذي في يده، وخرجت إلى الشرفة كي أستنشق بعض الهواء النقي، كانت الساعة حوالي العاشرة

والنصف مساءً، وفي الحقيقة لم يكن الجوُّ نقيًّا تمامًا بل كان . كالعادة . محمَّلًا بمزيج من عوادم السيارات وأدخنة المصانع القريبة، وتلك الرائحة الغريبة من بقايا السحابة السوداء، ولكنَّ برد ديسمبر يخفف من تلك الآثار، أو على الأرجح يجمد شعورك بها!

كنت أشعر بضيق شديد حتى إني أجهشت بالبكاء، لكنني تمالكت نفسي .. وقبضت بكفي اليمنى على يسراي، قلت في نفسي:

– أنت رجل أشرفت على السبعين، لا يليق بك أن يراك أحد من أبنائك وأنت تبكي.

وبالفعل كتمت ضيقي، وما زلت أكتمه، لكنني إلى الآن لم أفكر في سبب هذا الضيق، هل ضايقني أنَّ سالمًا لا يحبُّ أخاه؟ لا أظنُّ هذا؛ لأنِّي أعلم أنَّه أكثرهم حبا له، يكفي أنَّه الوحيد الذي يجلس معه وينصحه.

هل آلمني الشعور بالمسئولية عن تدليل خالد؟

هل أشعرتني كلمة الرسوب بالفشل في تربية هذا الولد؟

ولماذا دللته؟ ألأنَّه كان وهو في المهد يشبه أخاه الغائب الذي لم أره إلا في المهد؟

آهِ يا عامر .. إنني لا أدري حتى إنْ كنت حيًّا أو ميتًا.

منذ ذلك اليوم الكئيب الذي اجتاحت فيه خنازير اليهود غزة وسيناء، كانت نكسة للأمة عامَّةً ولقلبي وروحي خاصة، تركت زوجتي وولدي الرضيع ورجعت إلى مصر في زيارة خاطفة كي أطمئنَّ على أمي فإذا بالحرب تشتعل ولا أتمكن من العودة.

أتصل في كلِّ يوم بكلِّ مَنْ أعرف في غزة .. الاتصالات منقطعة، الأنباء عن النصر المؤكد تذاع كلَّ ساعة، لتبعث الأمل المرتقَب في القلب المكلوم، وفجأة نبأ النكسة والكلب يريد أن يتنحى بعدما أغرق البلد في الوحل وضيَّع الأرض والعرض، آهٍ وألف آه ..

كنت أموت في كلِّ يومٍ ألف مرة .. الفراق يقتلني، الحسرة تقتلني، الندم يقتلني، الخزي يقتلني، فقد الحبيبة، فقد ابني، العجز، القهر، ألف مرة.

***

تمت